المدرسة الياقوتية برباط ذي سفال .. عراقة العلم والمعمار

سواقي القرية كنوز حضارية لازالت تفيد الناس والزرع

تقع قرية الرباط إلى الشرق من مركز ذي السفال محافظة إب وهي من القرى ذات التاريخ العريق تشهد بذلك بعض المآثر التاريخية التي لا زالت شاهدة على عراقتها وأصالتها ولعل المنازل العتيقة التي يزيد عمرها عن مائتي عام وبعضها أكثر بكثير تمثل ثراء حضارياً لهذه القرية الصغيرة، كما تحوي هذه القرية على عدد من المساجد القديمة التي تتزامن أعمارها مع بداية أول إنسان سكن القرية ومنها مسجد القبة القديم الذي أصبح الآن لا يستخدم للصلاة بسبب صغره وأيضاً بعده عن بركة الوضوء التي تم بناؤها بصورة تتناسب مع الساقية التي يبلغ طولها عشرات بل مئات الأمتار حيث أعدت هذه الساقية من أعلى وادي ضبا وتحديداً من منطقة «العنبي» بداية الساقية لتصل إلى أبعد نقطة لها بالقرب من قرية حقير القريبة من قرية (الرباط).

استطلاع وتصوير/
عبدالباسط النوعة

وقد استفادت الكثير من المزارع والحقول الممتدة على طول هذه الساقية وأسفلها طوال عشرات السنوات الماضية وحتى الآن من هذه الساقية التي ترجح المصادر والكثير من كبار السن في القرية الرباط أن باني هذه الساقية هو العلامة (عفيف الدين البريهي) وهو أول من سكن هذه القرية ويقول الأخ عبدالله أحمد محمد البريهي والذي يعمل حالياً على ترتيب وتنظيم الري لمختلف المزارع المستفيدة من الساقية أنه توارث هذه المهنة عن أبيه الذي بدوره ورثها عن أجداده وكانت هذه الساقية طويلة أكثر مما هي عليها الآن ولكنها وبسبب السيول وغيرها من العوامل طمرت في كثير من الأماكن الأمر الذي ادى إلى الحيلولة دون وصول هذه الساقية هذه الساقية إلى الأماكن التي كانت تصل إليها من قبل.

عادات للري

مؤكدا أن هذه الساقية كانت تحوي عددا من الجسور التي بنيت لتمر من خلالها مياه الساقية بيد أن هذه الجسور لم يبق منها سوى جسر واحد ولهذا تحتاج هذه الساقية إلى كثير من الأموال لكي يتم إعادة هذه الساقية وإفساح المجال أمامها لتصل إلى ماكنت عليها سابقاً وبالتالي يستفيد منها الكثير من الحقول والمزارع خاصة أن تكاليف السقي « السرابة» تعتبر رمزية أي أنها قليلة مشيراً إلى أن هناك أعرافا تم توارثها لرعاية هذه الساقية لعل أبرزها التكاليف الرمزية وأيضاً أن مياه الساقية لا يجوز أن تستفيد منها مزارع فوق الساقية ولو حتى (بشير واحد) وذلك بسبب وجود ساقية أخرى تقع أعلى القرية وتستفيد منها المزارع التي تحتها، بيد أن هذه الساقية لم تعد على سابق عهدها من حيث الطول والمسافة التي تصل إليها.

وبالعودة إلى مسجد القبة القديم في هذه القرية فقد تم بناء بركة للوضوء تتغذى من مياه هذه الساقية وذلك لأن المسجد يقع أعلى الساقية الأمر الذي مثل صعوبة في ايصال المياه إلى بركة المسجد القديم وبالتالي بنت البركة اسفل الساقية وتم بناء مدرج من الاحجار يصل البركة بالمسجد وبعدها بفترة تم بناء مسجد أكبر بقليل من المسجد القديم جوار البركة وبناء صرح أيضاً وبالتالي تم استبدال الصلاة للرجال بالمسجد جوار البركة وجعل المسجد القديم مصلى للنساء وحالياً المسجد القديم مغلق ولا يتم الصلاة فيه.

تخريب وعبث

ومن المآثر التاريخية الهامة في هذه القرية المدرسة الياقوتية التي يعود تاريخ بنائها إلى عهد الدولة الرسولية التي اهتمت ببناء المدارس التعليمية والدينية حيث بنيت في مديرية ذي السفال العديد من المدارس لعل أشهرها المدرسة الياقوتية في قرية المدبغة والتي هدمت وبني على انقاذها جامع كبير للقرية وهذا قبل سنوات ليست بالطويلة

وهنا يقول الأخ أحمد محمد النوعة ، مدير فرع المدن التاريخية بمحافظة إب أن هدم هذه المدرسة في قرية المدبغة يعد خسارة حضارية وتاريخية ليس للمنطقة فحسب بل لليمن بأكمله فقد كانت تلك المدرسة من أبرز المعالم الحضارية العريقة التي كان يجدر الحفاظ عليها وترميمها ولا ضير بأن يتم إعادة استخدامها أما كمدرسة أو حتى كمسجد إذا كانت القرية تحتاج إلى مسجد أو جامع ، أما أن يتم هدمها ومساواتها بالأرض فهو أمر مؤسف ينم عن جهل وعدم وعي بأهمية ومكانة تلك المدرسة التي كانت تحظى بشهرة علمية واسعة واستطاعت أن تخرج الكثير من المختصين في مجالات شتى.

أيضا تحوي قرية الرباط مدرسة كان لها شهرة واسعة في فترات زمنية سابقة وبنيت هذه المدرسة بالتزامن مع مدرسة قرية المدبغة وتحمل نفس الاسم المدرسة الياقوتية ولكن لازالت مدرسة الرباط شامخة ببنيانها وهيئتها خاصة بعد أن تم إعادة ترميمها على نفقة أحد فاعلي الخير وقبل الترميم كانت المدرسة في حالة سيئة جدا فقد تهدمت أجزاء منها سواء في السطح أو الجدران أو حتى الأرضية ،ولعل العبث والبحث عن كنوز يمثل أهم الأسباب وراء ذلك فقد قام عدد من الناس سواء من داخل القرية أو خارجها بالاعتداء سواء بالحفر أو النبش في مختلف أنحاء المدرسة وقد تم هذا الاعتداء كما يقول أحد أبناء القرية على مرأى ومسمع من الأهالي والعقال إلى أن جاء أحد فاعلي الخير وأعاد الاعتبار لهذا المعلم التاريخي والديني الشامخ ورمم السطح والجدران وكذا المرافق .

إبداع في المعمار

(الثورة) زارت هذه المدرسة وتعرفت عن قرب على أبرز مكوناتها ومرافقها حيث تقع هذه المدرسة على مشارف على إحدى الواجهات المطلة على وادي ومزارع القرية من الناحية القبلية ويتكون مبنى المدرسة من طابقين الطابق الأول الآن يستخدم كمخزن لأعلاف المواشي والأغنام وسطح هذا الطابق عجيب للغاية فهو من الأحجار الساقطة التي تجعل المشاهد إليها يظن للوهلة الأولى أنها سوف تسقط عليه ولكنها على هذه الحال منذ إنشاء هذه المدرسة وهذا يمثل أحد الفنون المعمارية للإنسان اليمني القديم القائمة على الإبداع والابتكار والتفنن .

ويقول الأخ علي عبدالله يحيى سفيان أحد جيران المدرسة أن هذا الطابق السفلي كان يستخدم كسكن للطلاب الذين كانوا يقصدون هذه المدرسة من مناطق وقرى مختلفة، أما الطابق الثاني فهو المكان المخصص للدراسة والتدريس وأيضا للصلاة وكان سطح المدرسة قبل العبث به يحوي مصدقات خشبية منقوشة لم يعد لها وجود فقد تم عمل سطح باستخدام أخشاب حديثة وهذا ما أوضحه (سفيان) مؤكداً أن المدرسة كانت تستخدم قبل أربعين عاما تقريبا أو تزيد كمصلى للنساء ، وكانت تزود المدرسة بالماء من خلال ساقية مقضضة تأتي من أعالي جبل (الدول) المشرف على قرية الرباط وتصل هذه الساقية مباشرة إلى بركة المدرسة والأحواض الصغيرة المجاورة للبركة ولازالت آثار هذه الساقية المقضضة حاضرة في عدد من الأماكن .

تحوي المدرسة على مرافق عديدة ،فبالاضافة إلى البركة والأحواض الصغيرة تحوي أيضا غرفة صغيرة كانت مهدمة تماما وعند الترميم أعيدت إلى حالتها السابقة بالإضافة إلى الصرح المقضض ، أما بوابة المدرسة الداخلية فقد بنيت من الأحجار الحمراء المنقوشة ويوجد على عتبة الباب من الأعلى خشبة منقوش عليها بعض النصوص القرآنية والتاريخ ولا يستطيع المشاهد تفسيرها نظرا للطمس الذي حل بها بيد أن هناك أشخاصاً معينين يستطيعون قراءتها لا سيما من كبار السن .

ويؤكد الأخ علي سفيان أن هذه المدرسة بعد ترميمها تم تخصيصها لتدريس القرآن الكريم وعلومه للنساء فضلا عن إعطاء النساء المسنات واللواتي لم يستطعن الالتحاق بالتعليم دروساً في محو الأمية وتعليم القراءة والكتابة وإلى الآن لازالت المدرسة على هذه الحالة وفي شهر رمضان المبارك يتم تكثيف الحصص في تدريس القرآن الكريم وإقامة حلقات ودروس دينية للنساء .